بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 57 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة لقمان

التاريخ:26\04\2022 م كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

ما زال الكلام في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

ووصلنا إلى المقارنة بين التتميم المذكور في هذه الآية، والتتميم المذكور في الآية السابقة، واتضح لدينا أنه من ناحية يوجد مشاكلة، فصبّار يشاكله ختار، وشكور يشاكله كفور، هذا من ناحية اللفظ، فالمشاكلة والمناسبة في غاية الوضوح.

أما من ناحية المعنى، فما يرتبط بشكور وكفور واضح المقابلة، فالشكور يقابله الكفور.

إنما الكلام في المقابلة بين صبّار وبين ختّار، إذا كان ختار عبارة عن كثير الغدر، فإن الصابر لا يقابله الغادر، حتى يتقابل الصبّار والختّار.

لكن لعل النظر في ذلك باعتبار أن الغدر ينشأ عن ضعف في الفاعل، الإنسان الذي يغدر هو ذلك الإنسان الذي يتعهد بشيء أمام أخيه الإنسان أو أمام الله سبحانه وتعالى ثم يخلف ويعمل على خلاف ما تعهد به.

وهذا في الواقع ينشأ من ضعف في شخصيته، ومن عدم قدرة على تحمل التزاماته، فبهذا اللحاظ يمكن أن يقابل بالصبّار، الذي عنده قدرة عالية في التحمل وفي مواجهة الأمور والالتزام بمقرراته والتزاماته.

بهذا تقريباً يكون قد تم الكلام في تفسير هذه الآية.

بعض الأحبة أرسل لي السؤال التالي: وهو يرتبط بهاتين الآيتين الأخيرتين، في الآية الأولى منهما كان الحديث عن جريان الفلك في البحر، والذي يدل على عظمة الباري تبارك وتعالى في تدبيره وفي

تنظيمه لهذا الكون، وهو آية من آيات توحيده وربوبيته، بالبيان الذي ذكرته سابقاً من أن هذا التلاؤم بين كثافة الماء وسرعة الريح والخشب الذي يطفو على وجه الماء حصلت هذه الآية، أحد الأخوة الأعزاء أرسل هذا السؤال: في العصر الحديث السفن مهما كانت كبيرة الحجم وهي حتماً في زماننا هي أكبر من السفن التي كانت قديمة، أن هذه السفن تجري بواسطة محركات، وهي مصنوعة من المعادن في الأعم الأغلب، وبالتالي سوف تجري هذه السفن حتى ولو كانت على خلاف جهة الريح بواسطة الدفع الميكانيكي بالمحركات، فهل حينئذ يقال بأن هذه الآية وهذه المعجزة وهذا البرهان على مدبرية الله تبارك وتعالى سوف يسقط ولا يبقى بهذا التطور العلمي والتطور الصناعي أو أنه لا ربط لذلك بهذه المعجزة؟

في الواقع هذه الآية التي يتكلم الباري تبارك وتعالى عنها هي آية مستمرة، حتى لو في الحاضر لا نستعمل السفن، لم يبق لها حاجة، أي: مثل كثير من وسائل النقل التي سخرها الله سبحانه وتعالى لنا في القديم الآن الإنسان الحديث لا يستعملها، لنفترض انقرضت الأحصنة، هل آية خلق الحصان حينئذ تنحسر ولا تبقى آية؟ لو في هذا الزمن أبطلنا استعمال السفن فهل حينئذ هذه الآية وتلك لا تبقى على ما هي عليه؟ فضلاً ما لو تطورت هذه الآلة إلى آلة لا تحتاج إلى دفع الرياح؟ في الواقع لا يتغير شيء؛ لأن كون الشيء آية يكفي لاستمرار كونه كذلك مرحلة الحدوث، ولا يشترط أن يكون كذلك في مرحلة البقاء، ولتقريب الفكرة إلى الذهن يكفي أن نقول: هذا الرجل قادر وقوي، وهو أن يحمل شيئاً خارج عن طاقة الإنسان المتعارف، وليس من الضروري حتى نصفه بوصف القوة أن يبقى حاملاً لهذا الشيء إلى الأبد، فبمجرد حدوثه يتصف بأنه رجل خارق للعادة.

هذه الآية الأرضية المرتبطة بتمام الانسجام بين قوى خلقها الله تبارك وتعالى، البحر والريح والخشب، هذه بمجرد هذا الانسجام ولو لمرة واحدة هو آية وعلامة على تدبيره وعلى قدرته، الإنسان بعد ذلك لا يحتاج إلى إليها، فليكن، فلا تسقط الآية عن كونها آية.

أو الإنسان طور ما خلقه الله تبارك وتعالى، فأوجد حركة ميكانيكية تعارض حركة الريح بشيء خلقه الله تبارك وتعالى، فهذا لا يسقط الإعجاز ولا يسقط مدبرية الخالق تبارك وتعالى.

وعادة الدلائل والعلامات من هذا القبيل، أي: حتى تعرف ذكاء شخص وتستدل عليه تأتي بحادثة من الحوادث التي تثبت ذكاءه، ولا نحتاج إلى ذلك في كل آن حتى يثبت أنه ذكي؛ لأن الكلام عن الدال والكاشف عن العلامة لا عن المعلم، فهذه الظواهر الكونية هي علائم قدرة الله تبارك وتعالى، وهي لم تتغير، غاية الأمر حاجة الإنسان إلى السفينة إما انتهت وإما تغيرت إلى حاجة أخرى، أما دلالية هذه الآية تبقى على ما هي عليه.

وصل الكلام إلى قول تبارك وتعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَده وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

هذه الآية قبل الأخيرة في هذه السورة المباركة، كما نلاحظ فيها مقاطع:

المقطع الأول: وجه خطاباً إلى جميع الناس بأن يتقوا الله تبارك وتعالى، فقال: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ في القرآن الكريم هناك آيات توجه الأمر بالتقوى إلى الذين آمنوا، هذه الآية وجهت الأمر بالتقوى إلى الناس.

ومصطلح الناس في القرآن الكريم كما أشرت مراراً لا يقصد من فئة خاصة، وإنما يقصد منه المجتمع البشري، فهذا خطاب لجميع الناس. بخلاف قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1] خطاب موجه للذين آمنوا.

في العادة علماء التفسير، وبالتحديد إلا آيات التي فيها تكاليف ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ﴾[2] و﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾[3]. عادة علماء التفسير يذكرون توجيه وتبرير، توجيه الخطاب إلى المؤمنين، والحال أن المكلف بالفروع هو الأعم من المؤمن والكافر، بل كل الناس على رأي المشهور، فرأي المشهور أن الأحكام الفرعية مشتركة بين المؤمن وبين الكافر، غاية الأمر لو أتى بها الكافر في حال كفره لا تقبل منه، بخلاف المؤمن، أما أصل التكاليف هي عامة.

---

[1] آل عمران 102
[2] البقرة 183
[3] الجمعة 9

فلما كانت عامة جاء علماء التفسير وبرروا توجيه هذه التكاليف إلى خصوص الذين آمنوا، فهناك توجيه عام في العادة، وهو أن الباري تبارك وتعالى يريد أن يشير إلى أن الذي يستفيد من هذه الأوامر والنواهي هو المؤمن، أما الكافر هو بحكم الميت ﴿وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[4] هذا عادة التوجيه العام.

لكن الآن نحن أمام ظاهرة، أن الأمر بالتقوى تارة يوجه إلى الذين آمنوا وأخرى يوجه إلى تمام فئات المجتمع وتمام الناس، فهل الأمر بالتقوى هو عام حينئذ يحتاج التخصيص بالذين آمنوا إلى تبرير أم أن الأمر بالتقوى خاص والذي يحتاج إلى التبرير هو توجيهه إلى جميع الناس؟

الذي نفهمه من آيات القرآن الكريم هو أن الإسلام يطرح منهجاً تربوياً على البشر، هذا المنهج التربوي عنوانه التقوى، وهذه التقوى التي هي منهج تربوي إسلامي لا تختص بفئة دون فئة، ولا تختص بمن هو على شرعة نبي الله محمد ﷺ، بل تشمل شرعة سائر الأنبياء[5]، فالخطاب بالتقوى بحسب الآية في سورة النساء تقول: ﴿وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فهو خطاب عام، فحينئذ الذي يحتاج إلى تبرير وتوجيه التخصيص في بعض الآيات بالذين آمنوا. وفي سورة آل عمران: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ﴾[6] باعتبار أن هذا المقطع من الآيات يتكلم عن الذين اتبعوا النبي ﷺ ويأمرهم بأن يعتصموا بالله جميعاً، فلذا خصصه بالذين آمنوا، وإلا منهج التقوى هو منهج عام.

فإذن في المقطع الأول: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ ولم يقل اتقوا الله، لأجل التأكيد على التناسب مع الآيات التي قبلها، التي كانت علائم على مدبريته، واسم المدبرية هو الرب، فقال: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ لما عرفتم من تدبيره.

الانسجام الآخر بين هذه الآية والتناسب السياقي بين هذه الآية والآية السابقة يمكن أن يكون من جهتين أخريين:

---

[4] فاطر 22

[5] ولم أعبر بالأديان؛ لأن هذا التعبير من ناحية القرآن غير صحيح، لا توجد أديان، وإنما يوجد دين واحد، إنما توجد شرائع متعددة.

[6] آل عمران 102

الجهة الأولى: في الآية السابقة ذكر شيئاً مهولاً، وهو ذلك الإنسان الذي تجري به الفلك في البحر فيغشاه الموج كالظلل، يصيبه الهول والفزع، فيعود إلى ربه. وهذا شيء أنا وأنت قد نجربه ونقع فيه بالفعل، وقد نراه، وقد نسمع عنه، على تقدير هو شيء من ضمن التجربة البشرية الفعلية، هذا كلنا إما جربناه بأنفسنا أو رأيناه أو سمعنا به.

فإذا هذا الأمر جعلنا نرجع إلى فطرتنا، فـ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فتريد هذه الآية أن تقول لك هناك أمر أكثر هولاً وأكثر فزعاً منه، بل الهول الموجود فيه لا يقاس بذلك الهول، في هذه الدنيا مهما كان الهول عظيماً لا تنقطع رابطة القرابة، يبقى الأب يشفق على ابنه، ويبقى الابن يقوم بواجبه ولو بحده الأدنى تجاه والده، مهما كان هذا الهول عظيم، أما ذلك الهول -هول يوم القيامة- المرضعة تترك رضيعها، الأم تترك طفلها، فإذا كان هول الدنيا يرجعكم إلى فطرتكم، وتدعون الله مخلصين له الدين، فتأملوا إذن بما هو أعظم، وبدأ بذكر خصائص هذا الشيء الأعظم.

إذن هذه وقفة سياقية أولى بين هذه الآية والآيات التي تقدمت عليها.